موقف الشعرية العربية الحديثة من الخيال في الأدب العربي

The attitude of Modern Arabic Poetry towards Fiction in Arabic Literature

الدكتور معوش محمد الصديق أستاذ محاضر(أ)

قسم اللغة والأدب العربي -جامعة الشهيد حمّة لخضر-الوادي(الجزائر)

mmmseddike@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2019/06/02 **تاريخ القبول: 2019/09/15**

ملخص:

نسعى في هذا المقال إلى تبيان موقف بعض أدباء ونقاد الشعرية العربية الحديثة من أمثال العقاد والمازني والشابي وشكري من الخيال في الأدب العربي، ذلك أنه مذ دخل عنصر الخيال في مفهوم الشعر نتيجة التأثر بالثقافة الغربية، حتى أثار تساؤلات من بينها: هل وجد الخيال في الأدب العربي كما هو موجود في الأدب الغربي؟ ولذلك تباينت المواقف من هذه القضية، ولكل حججه وبراهينه.

الكلمات المفتاحية: العربية؛ الشعرية؛ الحديثة؛ الخيال؛ الأدب.

Abstract:

In this article, we seek to show the attitude of some writers and critics of modern Arabic poetry such as Akkad, Almazni, Chebbi and Chokri towards fiction in Arabic literature. Since the inclusion of the element of fiction in the concept of poetry due to the impact of Western culture, many questions have been posed including: Did fiction exist in Arab literature as it ever existed in Western literature? Attitudes have, therefore, differed towards this issue, and arguments too.

***key words**:* Arabic; poetry; modern; fiction; literature

مقدمة:

لقد شهدت الشعرية العربية في بداية القرن العشرين تحولا على مستوى المرجعية والمصطلحات والمفاهيم، ويظهر ذلك جليا في الخطاب النقدي لدى رواد الاتجاه الوجداني أو الرومانسي من أمثال العقاد والمازني وشكري والشابي وغيرهم، وبأتي على قمة هذا التحول مفهوم الشعر وما يتألف منه من عناصر كالخيال والعاطفة والصدق... وتبعا لذلك تغير الموقف النقدي

من الشعر أو الأدب العربي عموما، وكمثال عن هذا الموقف سنأخذ قضية الخيال في الأدب العربي، وجدير بالذكر هنا أن نشير إلى أن أدباء ونقاد الرومانسية العربية يتكئون على المرجعية الرومانسية الإنجليزية، وكان لذلك أثره سواء في القول بالخيال أو بصياغة مفهومه أو ببلورة الموقف النقدي من خلاله، فأدباء الرومانسية العرب كانت لهم نظرة خاصة تتعلق بالخيال عند العرب كأمة وفي نتاجهم الأدبي أيضا سيما ما نراه عند العقاد والشابي والمازني وشكري... سنحاول في هذا الدراسة بيان تفاصيل هذا الموقف وشرح مسبباته ودواعيه، كما سنناقش حيثياته تطلعا إلى مدى مقبوليته أو بعده عن الصوابية النقدية.

أولا: العقاد ورأيه في الخيال العربي:

ينطلق العقاد في الكشف عن موقفه من الخيال عند العرب بفصل عرقي يقسم فيه الشعوب إلى (سامية) و(آرية)، فالشعوب الآرية هي أمم خيال لأنّ بيئتها ومناخها ساعداها على ذلك، فالمناخات الماطرة والغابات الكثيفة والأوعار الرهيبة خلقت أجواء من الذعر والهلع أثارت خيال ساكنيها وحرضته حتى بلغ من الخصوبة ما بلغ، يقول العقاد: "الآريون أقوام خيال نشأوا في أقطار طبيعتها هائلة، وحيواناتها مخوفة، ومناظرها فخمة رهيبة، فاتسع لهم مجال الوهم وكبر في أذهانهم جلال القوى الطبيعية، ومن عادة الذعر أنه يثير الخيالات في الذهن ويجسّم له الوهم فيصبح شديد التصور، قوي التشخيص لما هو مجرّد عن الشخوص والأشباح"[1].

أما الأقاليم التي تمتاز بالصحو كالجزيرة العربية مثلا فلا مخاوف فيها ولا ذعر لذلك يضعف لأهلها الخيال وتقوى حواسهم المادية، وهذا ما حدث للساميين الذين منهم العرب، يقول العقاد: "والساميون أقوام نشأوا في بلاد صاحية وليس فيما حولهم ما يخيفهم ويذعرهم، فقويت حواسهم وضعف خيالهم"[2].

ويؤكد العقاد رأيه ذا بوجود الأساطير في الآداب الآرية، وخلو الآداب السامية منها، يقول: "فليست الميثولوجي إلا إلباس قوى الطبيعة وظواهرها ثوب الحياة ونسبة أعمال إليها تشبه أعمال الأحياء وتلك طبيعة الآريين فإنهم كما قلنا قد امتازوا بقوة التشخيص والخيال على الساميين"[3].

ويمضي العقاد متطرفا في هذا الرأي حتى اعتبر الشاعر العربي أو المصري إذا اتسم بسعة الخيال وقوة التشخيص آريا في مزاجه وحياته واعتبر الشاعر عبد الرحمن شكري نموذجا لهذا الصنف، يقول: " وأيما شاعر كان واسع الخيال قوي التشخيص فهو أقرب إلى الإفرنج في حياته وأشبه بالآريين في مزاجه وإن كان عربيا أو مصريا، ولاسيما إذا كان مثل شكري جامعا بين

سعة الخيال وسعة الاطلاع على آداب الغربيين"[4]، وعندما قارن العقاد بين الشعر العربي والإنجليزي أقام الفارق على أساس وجود الخيال وانعدامه، ومن آثار وجود الخيال في الشعر الإنجليزي بروز الوصف الروحي العاطفي، ومن آثار غياب الخيال في الشعر العربي طغيان الوصف الحسي المادي عليه، وخير مثال على ذلك وصف المرأة في كلا الشعرين، يقول العقاد: "ومن الفروق الواضحة بين الشعر العربي والإنجليزي أنّ أولهما يدور أكثره على الحسّ وثانيهما يدور أكثره على العطف والخيال، فالشاعر العربي يصف امرأة لها سمات جسدية من الفرع إلى القدم تقاس وتكال، وأما العاشق الإنجليزي فيصف المرأة التي يحبّها كأنها روح عاطف له ثوب من الجسد الجميل"[5].

ما قلناه سابقا يبين موقف العقاد من الخيال عند الإنسان العربي وأدبه بصفة عامة والآن نود ذكر مواقف خاصة في الخيال من أدباء وأعمال أدبية معينة:

1 . هل في "رسالة الغفران" خيال؟:

المعري بالنسبة للعقاد ضعيف ملكة الخيال قاصرها، يقول: "فكانت ملكة الخيال فيه على قصورها وضعفها مكبوحة لا تنطلق إلى مداها"[6]، والسبب في ذلك غلبة الجانب الفلسفي عليه الذي أضعف خياله وأمكنه من عدم الافتتان بالأخيلة الشعرية، يقول العقاد في هذا الجانب: "ولكننا أردنا أن نبيّن ضعف سلطان الخيال على ملكات المعري وغلبة النزعة الفلسفية على السليقة الفنية، وأن نستدلّ من رأيه في الأخيلة الشعرية على قلة تمكنها من طبعه وسهولة انصرافه عن فتنتها وإفلاته من أوهاقها، وما عهدنا أن يسهل الإفلات منها على ذي قريحة مطبوعة على التخيّل"[7].

أما رسالة الغفران بالنسبة إليه تعتبر "أقرب إلى الكتب الجغرافية وأوصاف الرحلات المشاهدة إلى أفانين الشعر ومخترعات الخيال"[8].

ولكن العقاد يستدرك في هذا الموقف بما يفيد اعترافه بوجود نسبة من الخيال في رسالة الغفران وعند صاحبها أبي العلاء المعري، يقول: "ومن القصد في الحكم أن نقول هنا إن رسالة الغفران لم تخل من آثار الخيال ولم تعطل كلّ العطل من حلية الشاعرية، وهذا من البديهيات وإلا فكيف كان يتأتى أن تخلو من خيال أو تعطل من شاعرية؟ وكيف كان يتهيأ للمعري أن يتوخى الصدق الحسّي في الرسالة وأن يفصل بين الخيال والحقيقة في رواية هذه الغيبيات ولو تنبه لذلك جهده وحاوله بكل ما أوتي من قدرة؟؟ فأقلّ ما في الأمر أنه رجل كفيف نشأ على أن يستعين بالتصور الوهمي على إدراك الصور المرئية فلابد له من قدر من التخيّل تكسبه إياه

المعالجة إن لم يكن قد طبع عليه طبعا، وأنه مارس الشعر والتوصيف ولن تخلو الممارسة من فائدتها في تنمية الملكات وإذكاء الخواطر"[9].

2 . وماذا عن قصص "ألف ليلة وليلة"؟:

رغم ما عرفت به حكايات 'ألف ليلة وليلة" من خيالية إلا أنه من الواضح أنّ العقاد ينفي الخيال عنها، أو على الأقل ينفي عنها الصورة المثالية للخيال كما يراه هو: "بل الخيال هو فكرة يبيع الإنسان في سبيلها متاع الدنيا وكنوز الأرض وبهرج الحياة.. أو هو مثل أعلى لا تعرفه شهرزاد ولا يتبعه صائغ البصرة، ولا تراه في ديوان من دواوين تلك القصص التي هي وسوق الرقيق سيان، وبودنا ألف ودّ لو يعظم نصيب الشرق من هذا الخيال"[10].

وإذا سألنا العقاد عن الجانب الغرائبي والعجائبي في تلكم الحكايا، أجاب العقاد قائلا: "ليست (بالخيال) في أيّ سمة من سماته ولكنها واقع مع إيقاف التنفيذ"[11].

3 . من قال إن العرب خياليون؟:

إن وصف العرب أو الشرقيين بالخياليين حسب رأي العقاد هو صنعة أوربية لأنه: "قبل اتصال أوربة بالشرق لم يقل أحد من الشرقيين إنّ الشرقيين أهل أحلام وخيالات"[12]، لذلك فنحن: "لم نخدع أنفسنا حتى خدعنا الأوربيون عنها فانخدعنا! ثمّ صدّقنا أننا أهل عاطفة ولسنا أهل عقل، وأننا أهل خيال ولسنا أهل حسّ"[13]، وكان من نتائج هذه المغالطة أنّ: "الأوربيين وصفونا هذه الصفة فاغتررنا بها ومضينا فيها، ولا سند لها على الأرجح أقوى من ألف ليلة وليلة وما جرى مجراها من القصص والنوادر وهي كما تعلم ليست (بالخيال) في أيّ سمة من سماته ولكنها واقع مع إيقاف التنفيذ"[14]، ولكنّ ناظرا إلى أسباب وصف الأوربيين للشرقيين بأنهم خياليون يعتقد أن هناك خيالا في حكايا "ألف ليلة وليلة" وبعض النوادر و"رسالة الغفران" وهي التي تأثر بها الشاعر الإيطالي دانتي إلا أنّ العقاد يرى أنّ: "الخيال المزعوم عند الشرقيين هو (واقع ناقص) لا يحسب له فضل الواقع ولا يحسب له فضل الخيال، ولو كان خيالا حقا لكان ابتكارا وخلقا وسعيا إلى عالم جديد"[15]، فالخيال الذي ينشده العقاد يجب أن يمتاز بالابتكارية والخلق والبحث عن التجدد الدائم.

إنّ رأي العقاد يخالف توجه بعض الأوربيين لوصف الأمم الشرقية بالخيالية استنادا إلى بعض الأعمال التي تجاوزت الإقليمية ووصلت إلى العالمية، وهذا يدل على اختلاف جوهري في مفهوم الخيال، فالعقاد لا يرى المستحيل خيالا كما لا يرى تصوير الواقع كما هو مع إضفاء بعض العجائبيات خيالا أيضا، إنما الخيال شيء مختلف عن ذلك وأقوى منه، لذلك فهو لا يرى

أنّ الشرق قليل الخيال فحسب بل الأمر أخطر من ذلك، فإن الشرق تحت خط الفقر من الخيال وهو إلى الإعدام والإتراب أقرب، لذلك يقول: "إن لم تكن الحقيقة أنّ الشرق مسكين غاية المسكنة مدقع غاية الإدقاع في أزواد الحسّ والخيال، فالأسطورة الكبرى ولا ريب هي أنه مسرف في حسه وخياله مفرط في شطحاته وآماله"[16].

ونتيجة لذلك فإنّ العقاد يدعو من يصفون الشرق بالخيالية قائلا: "لا يا أساة الشرق الحزين والمشفقين عليه! داووه من نقص الإحساس لا من فرط الإحساس، وداووه من ضنانة الخيال لا من سرف الخيال"[17].

كما ينبه العقاد في هذا السياق أنّ نقصان الشرق من العاطفة والروحانية والخيال يعني امتلاؤه بنقيضها، لا" فجائز جدّا أنّنا لا عاطفيون ولا عقليون ولا روحيون ولا ماديون ولا خياليون ولا حسيون"[18].

ويعود بالإنكار على من رأى أن الأمة العربية أمة خيال بسب وجود قصص "ألف ليلة وليلة" في تراثها، يقول العقاد: "أخياليون وحالمون لأننا نعيش في عالم ألف ليلة وليلة؟ فما عالم ألف ليلة وليلة إذن؟ عالم قصور وموائد وكنوز وفتيات حسان... عالم واقع ملموس تراه العيون وتذوقه الأفواه إلا أنه لا ينال، وليس هذا هو الخيال"[19].

ثمّ يختم العقاد موقفه هذا بالتأكيد على عوامل ضعف العرب في جانب الخيال بقوله: "فائتمر التاريخ والإقليم واللغة على أن يكون العرب أمة بلا خيال، وأهون بذلك لولا أن سعة الدنيا من سعة الخيال، وإن حلى الحياة إنما تصاغ من سعادته وكنوزه"[20]، ولذلك إذا أرادت هذه الأمة النهوض والتقدم والتحرر عليها أن تتزود من الخيال الذي هي فقيرة منه، يقول: "فلنكن على يقين . سواء كنا من طلاب الحرية أو طلاب القوة . أن النخوة مطلب لا غنى عنه في الحالتين وأننا محتاجون إليه وأنّ الخيال عدّة لا محيص عنها في المعسكرين، وأننا نحن الشرقيين عزل منها"[21].

ثانيا: أبو القاسم الشابي وموقفه من الخيال عند العرب:

ألف الشابي كتابا بعنوان "الخيال الشعري عند العرب" وهو عبارة عن مسامرة ألقاها على جمهرة من المتأدبين يشرح فيها وجهة نظره في مفهوم الخيال الشعري من جهة، ومن جهة أخرى حظّ العرب وأدبهم من هذا الذي يسميه (الخيال الشعري) ويمكن أن نستجلي موقف الشابي في هذا الكتاب من خلال النقاط التالية:

1 . التمييز بين نوعين من الخيال:

ميّز الشابي بين نوعين من الخيال حتى يفهم الخيال المقصود عنده عندما يقول بضعفه عند العرب وفي أدبهم:

1 . (الخيال البلاغي)

2 . (الخيال الشعري)

فالأول خيال زينة وزخرف لا هدف له سوى أناقة اللغة والأسلوب وتجاوز ضيق المعجم إلى رحابة المجاز، وهذا للعرب وأدبهم حظ وافر لا مراء في ذلك...

أما الثاني فهو خيال التمرد والمغامرة غير المتهيبة نحو الأعماق السحيقة المظلمة هدفها الوصول إلى الاتحاد بالمعرفة الكونية، وهذا لا حظّ للعرب ولا لأدبهم فيه إلا من قليل لا يكاد يعتدّ به، يقول: "وقد علمتم من كلمتي السابقة أنّي أعني بالخيال الشعري ذلك الخيال الذي يحاول الإنسان أن يتعرف من ورائه حقائق الكون الكبرى ويتعمق في مباحث الحياة الغامضة"[22].

2 . العرب أمة بلا خيال الشعري:

مثلما فعل العقاد في رد أسباب ضعف الخيال عند العرب إلى البيئة والطبيعة التي عاشوا فيها، كذلك جعل الشابي هذا العامل سببا رئيسا في ذلك، يقول: "فبما أنّ الأمّة العربية قد عاشت في أرض محرومة من هذا الجمال الذي يستفزّ المشاعر ويؤجج الخيال لأنها قطعة عارية قاحلة"[23].

وكنتيجة لعدم تأثرهم بتلك الطبيعة الجميلة التي حرموا منها فإنهم كانوا: "واقفين أمام مشاهد الكون لا وقفة المتهيب الخاشع لأنّ مثل هاته الوقفة مما كان الباعث عليه نشوة الحس وسكرة الخيال لابدّ أن يتفجّر يوما عن خير ما تتفق عليه القرائح والعقول، بل إنها وقفة الأخرس الذي لا ينطق والأعمى الذي لا يبصر أضواء النهار"[24].

ومن أسباب حرمان العرب من الخيال الشعري إحساسهم البسيط بتيار الحياة في الطبيعة لأن مثل هذا الإحساس لا يولد شعورا ملتهبا أو عميقا ينشئ الخيال عندهم، يقول الشابي: "ومثل هاته النظرة الفارغة لا ينتظر منها أن تشرق بالخيال الشعري الجميل لأنّ الخيال الشعري منشؤه الإحساس الملتهب والشعور العميق، وشعراء العربية لم يشعروا بتيار الحياة المتدفق في قلب الطبيعة إلا إحساسا بسيطا ساذجا خاليا من يقظة الحسّ ونشوة الخيال"[25].

ومن الأسباب كذلك جمال الشعور وتمرد الخيال، لأن الخيال الشعري يسعى إلى المعرفة الكونية وسبر أغوار المجهول وتجاوز المرئيات إلى الأعماق، يقول الشابي عن كلام لجبران في الأجنحة المتكسرة: " كلا! فأنتم لم تسمعوا مثل هذا الحديث ولن تسمعوه ممن سلف من شعرائنا لأنّ مثل هذا الحديث لا يقدم عليه إلا من أوتي شعورا جميلا مشرقا وخيالا قويا متمردا لا يتهيب الأعماق المظلمة ولا يقنع بالظواهر البادية، أما الشاعر العربي فلم يؤت مثل هذا الإحساس ولا هذا الخيال... وإنما كان له إحساس قاصر وخيال محدود لا يتجاوز الظواهر ولا يطمع فيما وراء المرئيات"[26].

3 . العرب والأساطير:

يعترف الشابي بوجود خيال في الأساطير وخاصة الأساطير الإغريقية، ولكن هذا الحكم لا ينطبق على الأساطير العربية على حسب رأيه، وعادة ما ترتبط الأسطورة بالمؤسسة الدينية، وبحسب عمق وقوة هذه الأخيرة تكون قوة الأسطورة وعمقها، وبما أنّ المؤسسة الدينية عند العرب ليست من العمق ولا القوة في شيء: " كانت أساطير العرب وثنية جامدة حافية لم تفقه الحق ولا تذوقت لذة الخيال"[27].

غير أنّ الشابي يستثني من هذا الحكم العام أسطورة عربية واحدة يسميها أسطورة النجوم في قوله: "ولا أستثني من ذلك إلا أسطورة النجوم فإنّ عليها شيئا من وضاءة الشعر ونضارة الخيال"[28]، ويقصد بهذه الأسطورة أسطورة سهيل وأختيه التي يثني عليها بقوله: وهل وجدتم فيها جمالا أكثر من هذا الحديث الخيالي الوضيء الذي يروونه عن سهيل وأختيه"[29]، وبقوله: "فهل رأيتم فيما نظم الشعراء وكتب الكاتبون أعمق خيالا وأصدق تصويرا للحياة من هاته الأسطورة وهل رأيتم واحدة من أساطير العرب تدانيها سعة في الفكر وغزارة في الخيال"[30].

4 . الخيال بين الأدب العباسي والأدب الأندلسي:

وفي مقارنته بين الأدب العباسي والأدب الأندلسي يصل الشابي إلى أن الأدب العباسي أعماق خيالا وهذا خاص بغرض وصف الطبيعة، يقول: "ينحصر هذا الرأي في أنّ الفنّ الطبيعي في الأدب العباسي أبعد نظرا وأعمق خيالا وأدق شعورا منه في الأدب الأندلسي"[31]، وقبل أن يورد نموذجا من شعر أبي تمام، يقول: "ألا تحسون بهذه النظرة البعيدة النافذة وبهذا الخيال القوي العميق في بيت أبي تمام"[32].

وكذلك فعل مع وصف البحتري الشهير للربيع إذ يقول عنه: "أيّ خيال أعمق وأي نظر أبعد؟ أليس من بعد النظر وعمق الخيال أن يحسّ الشاعر بتلك الدنيا الخيالية الرائعة التي يخلقها الربيع"[33].

بينما عن الأدب الأندلسي الذي تناول شعر ابن خفاجة نموذجا عنه، يقول: "وعلى هذا النحو كلّ ما قاله ابن خفاجة في جمال الطبيعة: براعة في الوصف وجمال في الأسلوب دون أن تجد خيالا قويا أو شعورا دقيقا"[34].

ما نخلص إليه في هذا العنصر هو أنّ الشابي يعترف بوجود خيال شعري في الأدب العربي، ولكنه ليس سمة بارزة فيه، يكاد ينحصر في نماذج وأغراض خاصة، وعند شعراء معينين.

5 . في الأدب العربي بعض الخيال:

يعترف الشابي بوجود بعض الخيال في الأدب العربي لاسيما في الفنّ القصصي وهذا عكس ما يراه العقاد، يقول الشابي: "وقد لا يعجز الباحث في الآداب العربية أن يجد شيئا من القصص الرائع الفخم الجميل، وأن يجد في ذلك القصص خيالا عذبا مشرقا بالروح والحياة"[35].

وأيضا عكس ما يرى العقاد اعتبر الشابي أن "رسالة الغفران" للمعري هي أفضل القصص العربية خيالا، يقول: "وفي تلك الفترة التي كانت بين البديع والحريري ألف المعري رسالة الغفران، وهي خير ما ألف في النثر القصصي خيالا ومغزى"[36]، ولكن هذا الاعتراف لا يعني وجود الخيال بصفة بارزة في الأدب العربي وبالصورة التي ينشدها الشابي كما وضحه نظريا.

6 . بين الشاعر العربي والشاعر الغربي:

وفي هذا المقارنة التي يجريها الشابي بين الشاعر العربي والشاعر الغربي في التعامل مع الجمال المحسوس وكيفية التعبير عنه يؤكد الشابي على ضعف الخيال عند العرب وقوته عند الغرب أولا، وثانيا غلبة النزعة الحسية المادية في الشعر العربي في مقابل النزعة العاطفية الخيالية في الشعر الغربي، يقول الشابي: "فالشاعر العربي إذا عنّ له مشهد جميل استخفّ نفسه واستفزّ شعوره، عمد إلى رسمه كما أبصره بعين رأسه لا بعين خياله، فأعطى منه صورة واضحة أو غامضة على حسب نبوغه واستعداده ولباقته في الرسم والتصوير، دون أن يكشف عما أثاره ذلك المشهد في نفسه من فكر وعاطفة وخيال"[37].

ويقول أيضا: "أما الشاعر الغربي فإنه يعرض أمام النفس الصورة والأسباب والعوامل التي حركت في نفسه ذلك الرأي بصورة شعرية تحليلية ثمّ لا يلقيها كما يلقي الحصى الصلد عاريا جامدا، أو كما يلقي الأساتيذ تعاليمهم، ولكنه يلقيها في حلة ضافية من الشعر والخيال"[38].

7 . غلبة النزعة المادية على الأدب العربي:

العمق والخيال مرتبطان عند الشابي، لذلك يقول: "يجب علينا أن لا ننظر إلى الأدب العربي إلا تلك النظر المعجبة لا غير حتى يمكننا أن نتخذ لنا أدبا قويما فيه ماضي الحياة الحاضرة من عمق في الفكر وسعة في الخيال ودقة في الشعور"[39].

والسطحية وغياب العمق يعني غلبة النزعة المادية، يقول الشابي: "ولا يغضّ من الأدب العربي شيئا أنّه ماديّ لا شيء فيه من عمق الخيال وقوة التصور"[40].

والعمق مفقود في الأدب العربي نتيجة لهذه النزعة لذا يتساءل الشابي قائلا: "هل تجدون في العربية من يحدثكم عن تلك المعاني العميقة التي هي أعمق من الموت، وأشدّ سعة من الحياة تلك المعاني القوية النافرة التي تلوذ بأودية الفكر وشعاب الخيال؟ ... ولكنكم واجدون من يستطيع أن ينضد لكم من المجازات الزائفة والكنايات المتكلفة ما تعجز عن بعضه جنّ سليمان ممّا لا علاقة له بالروح ولا رحم بينه وبين خيال الحياة"[41].

نعم إنها المادية هي التي أفقدت الأدب العربي عمقه فضعف خياله: "كلا فأنتم لا تجدون مثل هاته المعاني في الأدب العربي بحال وذلك لأنه أدب مادي محض لا يعرف من عالم الخيال إلا أضواءه الأولى وغيومه الناشئة"[42].

ومن ملامح هذه المادية الاكتفاء بالمدركات الحسية والظواهر المعينة دون النفاذ إلى أعماقها، يقول الشابي: "وتلك هي طريقة الأدب العربي في التكلم عن هاته المعاني العميقة التي تؤدي إلى أعماق الخيال لا يتكلم عنها في صميمها بل يتكلم عنها في أعراضها وآثارها البادية المدركة"[43].

ومما سبق نخلص إلى أنّ العقاد والشابي يتفقان على ضعف الخيال عند العرب نتيجة البيئة والطبيعة اللتين عاشوا فيهما، إلا أنّ العقاد يعمم هذا الحكم على الأمم السامية والشرقية، بينما يكتفي الشابي بحكمه على العرب فقط...

يعترف الشابي بوجود بعض الخيال في بعض الشعر العربي وقصصه في حين يكاد ينفيه العقاد تماما...

يؤكد كل منهما على غلبة النزعة المادية والحسية في الأدب العربي نتيجة الطبيعة الصاحية التي نشأ فيها وهذا ما أثر سلبا عليه من حيث الخيال والعمق...

ثالثا: موقف المازني:

وقد أتى المازني بموقف يشبه ما ردده العقاد في التفريق بين الأدب العربي والأدب الغربي على أساس عرقي عنصري معليا من شأن الجنس الآري، يقول: "وما ينكر أن الشعوب الآرية أفطن لمفاتن الطبيعة وجلال النفس الإنسان وجمال الحق والفضيلة إلا كلّ مكابر ضعيف البصيرة أعيته المصيبة الباطلة من إدراك ذاك ... وأنت إذا تأملت شعراء العرب وكتابهم لتعرف منازلهم من العظمة ومواقعهم من العبقرية، وجدت أولاهم بذلك وأسبقهم في استيعاب التعظيم قويا ينتهي نسبهم إلى غير العرب ... وقد تعلم أنّ للوراثة أثرا لا يستهان به في تركيب الجسم واستعداد العقل"[44]، فالفطنة العالية التي ينسبها إلى المازني إلى الشعوب الآرية إنما هي مؤشر قوة خيالهم وسعته وخصوبته.

أما العرب فقد ظلوا أسارى التقليدية وتقديس الأنموذج الماضوي واقتفاء آثاره، لذلك يقول المازني: "الناظر في شعر العرب يجد أن الشعراء جميعا قد ساروا في طريق واحد كما كانوا يسلكون في صحراواتهم طرقا واحدة، وكان المتأخر منهم يقلد المتقدم ويجري على منهاجه، وأكثر الفرق إنما هو في اللفظ والأسلوب لا في الأغراض وحسبك ذلك دليلا على ضيق الروح والحظيرة والعجز عن التصرف. لسنا نحاول الزراية على العرب أو العفن من شعرهم، وإنما نريد أن نقول: إن العرب ليسوا أشعر الأمم"[45].

فالمازني إذن يرجع الاختلاف بين الشعر الآري والشعر العربي السامي إلى الاختلاف بين الجنسين والاختلاف بين مظاهر الطبيعة عند كلّ منهما.

رابعا: موقف عبد الرحمن شكري:

في الوقت الذي كان فيه العقاد والمازني يخوضان في موقفهما السابق نجد عبد الرحمن شكري يعلن عدم موافقته على هذا التفريق المطلق بين الأدب العرب والأدب الغربي على أساس اختلاف البيئة والجنس كما فعل زميلاه فقال: " وما عجبت من شيء عجبي من القوم الذين يريدون أن يجعلوا حدا فاصلا بين آداب العرب و آداب الغرب زاعمين أن هناك خيالا غربيا و خيالا عربيا، فإذا قرأ الشاعر العربي أداب الأمم الأخرى أكسبته قراءتها جدة في معانيه وفتحت له أبواب التوليد"[46]، فشكري لا يعترف بالتمييز بين الخيال الغربي والخيال العربي مع اعترافه

بالاختلاف بين خصائص اللغات، كما أنه يؤكد على دور الثقافة والاطلاع في شحذ ملكة الخيال وإذكائها.

مناقشة المواقف السابقة:

إن موقف بعض نقاد الرومانسية العربية من قضية الخيال في الأدب العربي لقي شيئا من الاعتراض عند بعض الدارسين، نذكر منهم الباحثة سعاد محمد جعفر في أطروحتها للدكتوراه حيث تناولت التجديد في الشعر والنقد عند جماعة الديوان، وعندما تعرضت لمفهوم الخيال عندهم، اعترضت على الأسس التي أقامها كل من العقاد والمازني في التمييز بين الأدب العربي والأدب الآري، تقول: "والحقيقة أن التفريق بين السامية والآرية تفريق أريد به الحط من شأن العرب والزراية على الموروث من الحضارة الإسلامية في لغتها وأدبها وفي غير ذلك من أمور الفكر والحضارة، إنّ من الأخطاء الكبيرة التي وقع فيها المازني والعقاد هو محاولة الربط بين البيئة ومظاهر التفكير البشري، فالواقع أنه لا تلازم إطلاقا بين واقع البيئة وواقع التفكير، ولكننا درجنا على أن نفترض أن للبيئة المادية أثرا ضروريا جبريا في التفكير، ونقفز من القول بانبساط سطح الجزيرة وضوئها الغامر إلى نتائج رديئة عن طبيعة الفكر البشري فيها"[47].

كما اعتبرت الباحثة ما فعله العقاد والمازني امتدادا للحملة العنصرية التي يشنها بعض المستشرقين وعلى رأسهم (رينان)، تقول: "لقد أفاض العقاد والمازني في ذكر أوجه الفرق بين السامية والآرية بكلام يشبه المذهب العنصري في الآداب الذي كان فاشيا في أوربا في القرن التاسع عشر وأدى بأصحابه إلى إنكار وجود الملاحم في الآداب السامية..."[48].

وترى الباحثة أن هذه الدعاوى العنصرية مردودة علميا ونقديا، فمن الناحية العلمية نجدها تذكر: "ودعوى العنصريين مردودة بما تواطأت عليه مباحث الأنثروبولوجيا الثقافية في العهد الأخير فليس للتركيب الفيزيولوجي لجنس من الأجناس دخل في المواهب والقدرات العقلية، ولم يعد خافيا أنّ للساميين ملاحم كما للآريين، بعد ظهور ملحمة (جلجامش) التي كان قد غيبها الزمان"[49].

ومن الناحية الأدبية النقدية تقول: "والنقد الحديث يعتد بآداب الأمم في شتى البقاع وعند مختلف الأجناس لا فرق في ذلك بين أدب زنجي وأدب أمريكي وأدب صيني وأدب أوربي فكلها صور تعبر عن الإنسان"[50].

أما بحث الشابي في (الخيال الشعري) فقد نقده مختار الوكيل في مجلة (أبولو) بعد أن أثنى على صاحبه ودقة بحثه وإخلاص نيته ولكنه لاحظ غلوه في نفي الخيال الشعري عن العرب

وأدبهم، فقال: "فلا جدال في أن العرب كانوا على نصيب ممتاز من الخيال الشعري خصوصا بعد تمازجهم بالفرس واليونان في عهد بني العباس، على نقيض ما يذكره المؤلف من أنهم لم يتأثروا بهؤلاء ولم يمتزجوا بأولئك لعنجهية وغطرسة فيهم، ونحن نرى في كثير من شعر العهد العباسي خيالا رائعا لا يقلّ عن خيال فطاحل الشعراء الغربيين الذين يستشهد المؤلف بهم في غضون محاضراته القيمة"[51].

وأورد مختار الوكيل نماذج شعرية للبحتري والمتنبي وابن الرومي وابن حمديس يثبت فيها وجود الخيال الشعري عند العرب[52].

وفي العدد العاشر من نفس المجلة رد الشابي على هذا النقد مصرا على أنّ ما فهمه الوكيل عن الخيال لا يخرج الخيال الصناعي المجازي، أما الخيال الشعري الذي يقصده الشابي فحظ الأدب العربي منه قليل جدّا وهو إذ ذاك لا ينكر وجود طفرات تميزت بهذا الخيال.[53].

خاتمة:

وما نقوله بهذا الصدد إن ما ذهب إليه العقاد والمازني خاصة والشابي أيضا ليس كله الحق كما أنه لا يخلو منه، فهو بالدرجة الأولى توصيف لواقع في الأدب العربي من أدباء ونقاد عرفوا باطلاعهم الواسع وذائقتهم في القراءة، لكن ما يعاب عليهم في هذا الرأي هو التعميم المطلق للحكم، وكذلك إرجاع ضعف الخيال العربي لأسباب جينية عرقية وبيئية تتعلق بالطبيعة، والذي نراه أنّ هناك فعلا ضعفا في الخيال العربي بصفة عامة، وأنّ السبب ثقافي بالدرجة الأولى، فالثقافة العربية متأثرة بالنموذج القبلي الذي يعتمد التقليدية وحذو النموذج السائد، وهذا من شأنه أن يعيق الفلتات الفردية، ورغم الدفقة الحضارية التي حدثت بعد الإسلام لم يتحرر العرب من سيطرة الماضوية حتى ذهبوا شوطا بعيدا في المدنية وآن الأوان للتحرر حتى حدث ذلك الانتكاس السياسي فعادت التقليدية من جديد...

أما النموذج الأوربي فمختلف لأن طبيعة الثقافة الأوربية معقدة مرتبطة بنظم اجتماعية وسياسية أكثر تعقيدا، كما أن نموذج الخيال الأوربي قد عرف حقيقة بعد عصر النهضة، وهنا تغيرت المعطيات وهي مما لم يحظ به العرب في ثقافتهم وذلك منطقي حسب تدرج الحضارة الإنسانية.

قائمة المصادر والمراجع:

1 . أبو القاسم الشابي، الخيال الشعري عند العرب، الدار التونسية للنشر، تونس، ط2، 1983

2 . أبو القاسم الشابي، ، ردّ على نقد، مجلة أبولو، ع10، مج 1، يونيه 1933

3 . إبراهيم عبد القادر المازني، حصاد الهشيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، د ط، 1999

4 . سعاد محمد جعفر، التجديد في الشعر والنقد، (رسالة دكتوراة . مخطوط .) قسم الدكتوراة . كليّة الآداب . جامعة عين شمس، 1973

5 . عباس محمود العقاد، ساعات بين الكتب، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط1، 1984

6 . عباس محمود العقاد، مطالعات في الكتب والحياة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط1، 1983

7 . عباس محمود العقاد، يسألونك، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط2، د ت

8 . عباس محمود العقاد، الفصول، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، د ط، دت

9 . عبد الرحمن شكري، ديوان عبد الرحمن شكري، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ط1، 1991

10 . مختار الوكيل، الخيال الشعري عند العرب، مجلة أبولو، ع7، مج 2، مارس 1934

[1] العقاد، مقدمة ديوان عبد الرحمن شكري، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ج2، ط1، 1991، ص: 136

[2] العقاد، نفسه، ص: 136

[3] نفسه، ص: 137

[4] نفسه، والصفحة نفسها.

[5] العقاد، ساعات بين الكتب، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط1، 1984، ص: 559

[6] العقاد، مطالعات في الكتب والحياة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط1، 1983، ص: 120

[7] نفسه، والصفحة نفسها.

[8] نفسه، ص: 118

[9] العقاد، مطالعات، ص: 120، 121

[10] العقاد، يسألونك، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط2، د ت، ص: 299

[11] نفسه، ص: 298

[12] نفسه، ص: 297، 298

[13] نفسه، ص: 296

[14] نفسه، ص: 298

[15] نفسه، والصفحة نفسها.

[16] نفسه، ص: 207

[17] نفسه، ص: 208، 209

[18] نفسه، ص: 296

[19] نفسه، ص: 298

[20] العقاد، الفصول، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، د ط، دت، ص: 41

[21] العقاد، يسألونك، ص: 301

[22] الشابي، الخيال الشعري عند العرب، الدار التونسية للنشر، تونس، ط2، 1983، ص: 32

[23] نفسه، ص: 46

[24] نفسه، ص: 53

[25] نفسه، ص: 67

[26] نفسه، ص: 91

[27] نفسه، ص: 38

[28] نفسه، ص: 33

[29] نفسه، ص: 38

[30] نفسه، ص: 41

[31] نفسه، ص: 58

[32] نفسه، والصفحة نفسها.

[33] نفسه، ص: 59

[34] نفسه، ص: 61

[35] نفسه، ص: 93

[36] نفسه، ص: 101

[37] نفسه، ص: 112

[38] نفسه، ص: 114

[39] نفسه، ص: 106

[40] نفسه، ص: 107

[41] نفسه، ص: 108

[42] نفسه، ص: 109

[43] نفسه، ص: 112

[44] المازني، حصاد الهشيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، د ط، 1999، ص: 265، 266

[45] نفسه، ص: 265

[46] شكري، مقدمة ديوان عبد الرحمن شكري، ج5، ص: 409

[47] سعاد محمد جعفر، التجديد في الشعر والنقد، (رسالة دكتوراة . مخطوط .) قسم الدكتوراة . كليّة الآداب . جامعة عين شمس، 1973، ص: 223

[48] نفسه، ص: 224

[49] نفسه، والصفحة نفسها.

[50] نفسه، والصفحة نفسها.

[51] مختار الوكيل، الخيال الشعري عند العرب، مجلة أبولو، ع7، مج 2، مارس 1934، ص: 833

[52] ينظر: نفسه، ص: 833 ، 834

[53] ينظر: الشابي، ردّ على نقد، مجلة أبولو، ع10، مج 1، يونيه 1933، ص: 1172 إلى 1175